الفصل التاسع والعشرون

الكبش يتأخر لينطح

في الخطاب الذي ألقاه ريتشارد على مسامع باروناته وسلّم بإخفاق حملته الصليبية، تمحورت شكواه في أن صلاح الدِّين يبلّغ بكل تحركات الصليبيين حتى قبل أن يقوموا بها. وبالفعل كان لصلاح الدِّين جاسوس يعمل لحسابه ويتبوأ مركزاً عالياً في صفوف أعدائه. ففي غضون يوم من اتخاذ الصليبيين لقرار الانسحاب من بيت نوبة، لم يكن صلاح الدِّين على علم بماهية القرار وحسب بل بكيفية اتخاذه وبهويات من كان يدافع عن هذا الموقف أو ذاك. ففي رسالةٍ تبلغه بالنزاع القائم بين الملك والفرنسيين، نُقِل الحوار بين الطرفين حرفياً.

انتشر خبر الانسحاب بسرعة البرق في صفوف المسلمين، وراقبت العناصر الأمامية موكب الفرسان الكئيب يتحرك نزولاً على طريق الرملة، فبلغت نشوة الفرح أوجها. امتطى صلاح الدِّين شخصياً حصانه وذهب ليرى الموكب بأم عينه. إلاَّ أنه لم يكن بمقدوره أن يترك العنان لعواطفه فقد كان يخشى احتلال مصر بقدر ما كان يخاف من حصار القدس.

بعد فترة قصيرة، أرسل بطلب السفير الذي يمثّل هنري أوف شامباني. عندما وقف المبعوث في حضرة السلطان، تصرّف بوقاحة واندفاع لا يليقان

بمن تنسلّ قواته للخروج من الصراع. حمل المبعوث رسالةً من هنري يقول فيها: «إنّ الأنكتار قد أعطاني البلاد الساحلية، وهي الآن لي. فأعد عليّ بلادي حتى أصالحك، وأكون أحد أولادك»[1].

استشاط السلطان غيظاً عند سماعه هذا الكلام الوقح وأمر السفير بالغروب عن وجهه. ولكن المبعوث أبى أن يتوقف فواصل كلامه متلعثماً: «إنّ الكونت متشوّق لمعرفة كم ستعطيه من الأراضي الواقعة حالياً تحت سيطرتكم؟» وبّخه صلاح الدِّين مرة أخرى على قلة تهذيبه. ليس على المنتصر توزيع الغنائم. ولكنّ صلاح الدِّين استدعى السفير ثانيةً في اليوم التالي بعد أن هدأ روعه. وقال له:

«يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيس»[2].

بعد مضيّ عدة أيام وفي حين كان الصليبيّون في طريقهم من الرملة إلىٰ يافا، قدم سفير صلاح الدِّين، الحاج يوسف صاحب المشطوب، من بلاط ريتشارد. أثناء الانسحاب، استدعى الملك المبعوث وأمره بحمل مبادرة سلام جديدة لصلاح الدِّين. وصل المشطوب برفقة ضابطين من جيش ريتشارد للتأكد ظاهرياً من تسليم الرسالة بحذافيرها. ورد في الرسالة الملكية ما يلي:

«تقول لصاحبك بأن قد هلكنا نحن وأنتم، والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أنّ ذلك عن ضعف مني، بل للمصلحة ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان، ولا تغتر بتأخري عن منزلي، فالكبش يتأخر لينطح»[3].

استمتع صلاح الدِّين بهذا الكلام المنمّق الشجاع. فقد كان يعلم علم اليقين، من خلال عيونه، أنّ الخلاف في صفوف الصليبيين يضعف كبش

(1) ابن شدّاد، ص 218.
(2) ابن شدّاد، ص 218.
(3) ابن شدّاد، ص 218.

ريتشارد يوماً بعد يوم، وبالتالي فلن يتمكّن من النطح عمّا قريب. وصل ريتشارد، بعد ثلاثة أيام، إلىٰ عكّا وأرسل مبعوثاً آخر إلىٰ صلاح الدِّين:

«إني راغبٌ في مودتك وصداقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض، ولا يظن ذلك فيك. ولا يجوز لك أن تُهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلّهم. وهذا ابن أُختي الكندهري قد ملكتُهُ هذه الديار، وسلمتُهُ إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلىٰ الشرق سمعوا وأطعوا».

«إنّ جماعةً من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلْتَ عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسةً، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلتُ بتركها، وأعرضْتُ عنها. ولو أعطيتني مقرعة أَو قربة قبلتُها وقبّلتُها»[1].

يبدو أن هذا الالتماس المتواضع المطالب بكنيسة متواضعة في وسط القدس قد فعل فعله في تليين قلب صلاح الدِّين. لقد باتت الكرة في ملعب صلاح الدِّين خلافاً لما حصل خلال التداول الدبلوماسي في نوفمبر (تشرين الثاني) السابق حين طالب ريتشارد بكل صفاقة بكل الأراضي وصولاً إلىٰ نهر الأردن. إنه الآن يتفاوض من مركز قوة وبإمكانه أن يكون كريماً. كما أنه حان الوقت لتطبيق روح القرآن الذي يأمر المؤمنين بتقبّل الجهود الصادقة التي يبذلها العدو سعياً للسلام. فقد ورد في الآية 61 من سورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال: 61].

أرسل صلاح الدِّين الردّ إلىٰ ريتشارد في الحادي عشر من يوليو (تموز): «ابن أختك يكون عنده كبعض أولاده.. وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي

(1) ابن شدّاد، ص 219.

القيامة. وبقية البلاد نقسمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا. وما بين العملين تكون مناصفة. وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم. وإن أردتم قُراها تكون لكم..»[1].

انطلاقاً من ردّ ريتشارد على هذه الرسالة، ظهر بأنّ الطرفين على طريق التوصل لاتفاق ما. وصل ردّ الملك إلى صلاح الدِّين مرفقاً بهدية كانت عبارة عن صقرين رائعين من أفضل أنواع الصقور. وعبّر ريتشارد في ردّه عن امتنانه للعروض التي قدّمها صلاح الدِّين ولكنه يرغب في الحصول على حق إقامة عشرين من الإسبتاريين الشجعان في قلعة أورشليم. في الثالث عشر من يوليو (تموز)، جاء ردّ صلاح الدِّين فظاً: «إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة. وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه»[2].

لقد اصطدما بعائق، واسمه عسقلان. كان من المستحيل أن يبقي صلاح الدِّين هذه القلعة في أيدي المسيحيين. فقد ينتج عن ذلك اضطراب التنسيق بين نصفي إمبراطوريته. تمحورت السنون الثمانون الأخيرة من تاريخ العرب، بما فيها السنون العشرون الأخيرة من حكم صلاح الدِّين، على مواصلة الضغط لإعادة توحيد مصر وسورية. صلاح الدِّين هو من أنجز هذا الاتحاد. وهو إنجاز أضفى عليه مجداً وشرفاً. ومن خلال هذا الإنجاز وحسب، تقلصتْ رقعةُ مملكة الصليبيين وتعرّضت للخطر. كانت عسقلان تمثّل نقطة التحام الوحدة العربية[3]؛ ووجودُها بين أيدي الصليبيين يقوّض هذا الالتحام المهم الذي تحقق بعسر شديد.

أما النسبة لريتشارد، فقد أدّت إعادة بناء عسقلان عقب الانسحاب الأوّل

---

(1) ابن شدّاد، ص 219 - 220.

(2) ابن شدّاد، ص 220.

(3) ذكرتُ فيما سبق أنّ العروبة والإسلام تعنيان للمؤلف شيئاً واحداً (المترجم).

من بيت نوبة إلىٰ رفع معنويات رجاله اليائسين. طوال ستة أشهر، بذل جنوده أقصى جهدهم لإعادة بناء القلعة فارتفعت أبراجها من جديد فوق البحر. إنّ وجود عسقلان والداروم في أيدي الصليبيين، بوصفها المواقع الأمامية المتوجهة نحو مصر، يضمن توازن القوى بين الجانبين ويوفّر لمملكة أورشليم فرصةً مناسبةً للبقاء.

في السادس عشر من تموز/ يوليو، أجاب ريتشارد إجابةً مُبهمةً كما لو أنه لم يفهم المقصود. «بما أن المسيحيين اكتفوا بكنيسة واحدة فقط في المدينة المقدَّسة، فإن مطالبتهم بثلاث قلاع ليست بالكثير. فليحتفظوا إذن بما يسيطرون عليه من الداروم حتى أنطاكية»[1].

ومجدداً، جاء ردّ صلاح الدِّين جافاً ومقتضباً: «إنّ أهل أنطاكية لنا معهم حديث، ورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا. وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه.. وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ما خسر عليه اللّد في الوطاة»[2] (وتوجد في اللد الواقعة جنوب شرق الرملة كاتدرائية القديس جورج التي هدمها صلاح الدِّين، ويمكن لريتشارد أن يعيد بناءها معقلاً استراتيجياً).

وفي العشرين من يوليو (تموز)، أجاب ريتشارد بدوره إجابةً جافةً مقتضبة: «لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً».

وفور ورود هذه الإهانة، أعد صلاح الدِّين العدّة لإعادة إشعال نار الحرب.

(1) ابن شدّاد، ص 221.

(2) ابن شدّاد، ص 221.

II

يـافـا

بات مفتاح الصراع الآن في يد المسلمين. واحتلّ صلاح الدِّين مركز قوة هائلة وغير متوقعة بفضل تقدمه وتصميمه وجواسيسه. اتّسم انسحاب الصليبيين بالبلبلة والتفرقة إذ كان كلٌّ من الفرنسيون وريتشارد ينتحي منحى مختلفاً. لقد فقد الكبش قرنيه وقوته على النطح. وبلّغ الجواسيس صلاح الدِّين أنّ المرضى والمرهقين هم من توقف في يافا بينما واصل القسم الأعظم من جيش ريتشارد المسير وراء الملك إلىٰ عكّا. الخبر الأهم جاء في تقرير أرسل من عكّا يشير إلىٰ أن ريتشارد قد ترك العنان لتهوّره واندفاعه ووجّه باخرة محمّلة بالبحارة نحو الشمال استعداداً لغزو بيروت. وبالتالي أصبح الملك على مسافة أربعة أيام من أزمةٍ تحصل في الجنوب.

فُتحت الطريق واسعة إذن لأي هجوم يُقْدم عليه صلاح الدِّين. وبحلول أواخر تموز/ يوليو، وصلت كتائبه الرئيسة وقادته الأبرز من مختلف أنحاء الإمبراطورية بهدف الدفاع عن القدس ظاهرياً. وبالطبع، سرى دم يافع مندفع في شرايين الجيش بانخراط مجندين جدد فور ورود أنباء عن انسحاب الصليبيين من المدينة المقدَّسة، كما لو أنّ الجيش المسلم يجدّد الزحف لتسديد ضربته الأخيرة. أصبحت قوات صلاح الدِّين الآن في كامل قوتها لا بل أكثر.

في السادس والعشرين من تموز/ يوليو، وصلت كتائبه أمام أسوار يافا. اعتقد صلاح الدِّين أنّ السيطرة على المدينة أمر سهل فحاميتها عبارة عن قوة رمزية من خمسة آلاف رجل يفترض أنهم من المرضى والمرهقين. سلّم صلاح الدِّين قيادة الميسرة لشقيقه الملك العادل وقيادة الميمنة لولده الملك الظاهر بحيث طوّق الهجوم المدينة بأسرها وتوقع صلاح الدِّين سقوط المدينة بين يديه في غضون يوم واحد.

واشتدت دهشة عندما أبدت حامية المدينة مقاومةً فائقة القوة. أُحْضرت معدّات الحصار أي منجنيقان وأربع عرّادات إلىٰ مواقع أمامية، فيما أُرسل الحمّالون إلىٰ التلال للبحث عن جلاميد تحشى بها. تصدّع الجدار الخارجي بعد ثلاثة أيام من الجهد الذي شارك في بذله عمّال المناجم والمنجنيقيون. لكن عندما سقط جزء من السور، أضرم الصليبيّون مِشْعلةً هائلةً خلفه فتعالى حجابٌ من النار منع المسلمين من اختراق السور.

ألبيري أوف ريمز Alberi of Rheims هو اسم البارون الذي قاد الدفاع. لم يتصرّف البارون في البداية تصرفاً يليق بأرفع مناصب الفرسان النبلاء. إذ سارع فور سقوط السور للفرار من خطر الموت على متن زورق صغير. لكن زملاءه قطعوا الطريق عليه وأعادوا القائد السابق مكبَّلاً بالحديد لتخلّيه عن القضية. وفيما كان تحت المراقبة في أحد الأبراج، أنعم النظر إلىٰ المسلمين يضربون الدفاعات، فَعَلا صوت البارون الفرنسي وقال كمن يقف على خشبة المسرح: «إن علينا أن نكرّس أرواحنا في خدمة الله». فيما بعد، دوّن أحد المؤرخين هذا التعبير وألحقه بانتقاد ساخر: «لم يكن ثمة عملٌ آخر ليقوم به»!

أصبح الوقت الآن هو العامل الأهم. كالعادة، تخلّى ريتشارد عن زحفه المتهوّر نحو الشمال لغزو بيروت وسارع في اتجاه الجنوب لنجدة رجاله، وبلغ الخبر صلاح الدِّين على الفور. استحثّ السلطان جهود رجاله الأكراد عند المتاريس بتعابير واضحة: من الضروري احتلال المدينة قبل وصول الملك ريك! ولكنّ أمارات التعب والإرهاق بانت على وجوههم وما عادوا قادرين على الاستمرار في بذل مزيدٍ من الجهود البطولية.

في هذه الأثناء، حاول رجال الحامية كسب بعض الوقت. استلم زمام القيادة البطريرك المنتخب منذ فترة غير بعيدة، وهو الأسقف السابق لبيت لحم. أثبت الكاهن أنه رجل لا يقهره الخوف من الموت ولا يمكن لأي خطر أن يدبّ الرعب فيه. كما أنه كان ذكياً. أرسل مبعوثيه عبر الخطوط الفاصلة ليعرضوا

بكل تواضع على صلاح الدِّين تسليمه المدينة شريطة حصول تبادل للأسرى وإمكانية العودة إلىٰ معادلة دفع فدية للبقاء على قيد الحياة التي اعتمدت في أورشليم منذ أربع سنوات خلت، أي مبلغ عشر قطع ذهبية بيزنطية لكل رجل، وخمس لكل امرأة، وثلاثة لكل ولد. وتوالت الشروط.

رفض صلاح الدِّين هذا العرض المشروط حالاً ثم ندم فيما بعد على تسرّعه. ولم يؤد تحرك المبعوثين ذهاباً وإياباً محمّلين بأمل التوصل إلىٰ اتفاقية سلام وشيكة أَو الاستسلام إلىٰ تضييع وقت ثمين وتطويل الحصار، وحسب الحصار بل أسهم أكثر في إضعاف عزيمة الجنود المسلمين. وضرب الوهن المتزايد حصارهم.

ومع ذلك، وبعد مرور خمسة أيام على بدء الحصار، سقطت البوابة الشرقية المقابلة للقدس ركاماً. وتواجه الطرفان في فتحات مختلفة من السور. وتواصل تراجع رجال الحامية نحو القلعة القائمة على تلة في وسط المدينة. وللمرة الثانية، قدّم البطريرك عرضاً بشروط جديدة أكثر تساهلاً فاقترح أن يقدّم ضمانات هي عبارة عن رهائن مهمة كجزء من اتفاقية السلام. سارع صلاح الدِّين هذه المرة للقبول. وخرجت الرهائن بقيادة ألبيري أوف ريمز البائس.

انسحب رجال الحامية إلىٰ داخل القلعة أملاً في الصمود حتى وصول ريتشارد مستعدين في الوقت ذاته للشهادة. في هذه الأثناء، دخل الجنود المسلمون المدينة وأطلقوا العنان لأنفسهم في النهب والسلب. لم يستطع صلاح الدِّين كبحهم فقد كان جنوده يعانون من الكبت لفترة طويلة؛ فهم لم يستولوا منذ زمنٍ على مدينةٍ مسيحية. ووقف عند بوّابات المدينة أقوى جنوده الأكراد الذين كانوا يجردون الجنود من الغنائم عند خروجهم بها؛ مستأثرين بها لأنفسهم!

عند بزوغ فجر اليوم السادس من الحصار، في يوم يحتفل فيه بعيد

القديس بطرس المكبّل، ظهر في الأفق أسطول مؤلّف من خمس وثلاثين سفينة. اعتلى ريتشارد قيدوم باخرته الملكية «ترانشمير» المطلية باللون الأحمر رافعةً شراعاً أحمر وراية ملكية ضخمة رُسِم عليها ثلاثة أسود على أرضيةٍ حمراء. زوِّدت المراكب بأشجع الإسبتاريين وفرسان الهيكل بالإضافة إلىٰ أهالي بيزا وجنوى «الذين أنجزوا أعمالاً رائعة عندما طُلِب منهم».

تأخر الملك يومين. فقد حالت الرياح العاتية دون تقدّم الأسطول عند حيفا. وعندما أحس الملك بالارتباك والكبت لغياب رياح مؤاتية، رفع رأسه إلىٰ السماء وصرخ: «الرحمة يا إلهي! لماذا تعيق مسيري وتؤخرني مع أنني أسارع لتلبية طلبك؟» إن كان هذا مخطّط الربّ الذي يتعذر فهمه، فلا شك أنه يصعّب الأمور. وفيما كان أسطول ريتشارد ينطلق من عكّا، تحرّكت كتيبة أخرى من الإسبتاريين وفرسان الهيكل برّاً. ولكن مجموعة مشتركة من جنود صلاح الدِّين والحشاشين قطعت عليهم الطريق بين قيسارية وأرسوف، وثبّتتهم في مواقعهم.

في صباح ذلك السبت، كانت فدية المسيحيين في طريقها إلىٰ المسلمين. فقد سدّد حوالي خمسين فارساً القطع الذهبية البيزنطية العشر المفروضة عليهم وأخلي سبيلهم. ولكن عندما بلغ صوت الأبواق برج القلعة، سارع رجال حاميتها إلىٰ الأسوار ليروا الشراع الملكي الأحمر عن بعد، فصرخوا مردّدين قول إشعيّا: «يجأرون بالضراعة إلىٰ الله من ظلم الطُّغاة. ويرسل الله إليهم مخلِّصاً، مخلِّصاً كبيراً. وهو يخلِّصهم».

توقفت فجأة عملية الاستسلام، وأُحْكِم إغلاق الباب من جديد، وطوّق رجال الحامية الباقون أنفسهم بدروعهم وانسحبوا إلىٰ داخل برج القلعة.

وفيما بلغت أصوات البوق نفسها فسطاط صلاح الدِّين، كان يخوض مع البطريرك المسيحي مفاوضات صباحية باكرة حول التفاصيل الأخيرة

للاستسلام. أُخرج البطريرك على عجل واستلم صلاح الدِّين زمام الوضع العسكري. أمر بزرع الساحل المقابل للمدينة بحشد من الجنود المسلمين معتقداً بأنّ خمسةً وثلاثين مركباً قوة بسيطة. ألقيت على كاهلهم مهمَّة منع الصليبيين من إرساء مراكبهم. شكّل الجنود المحتشدون على الساحل انطلاقاً من المراكب المسيحية عائقاً مخيفاً. لقد كان الجنود المدافعون محشورين كقضبان القش دون ترك مجال للحركة. خاض الرّماة في المياه وأطلقوا سهامهم الكثيفة بحيث حجبت السماء. خلفهم حاول الخيّالة كبح لجام خيولهم المندفعة. أصدر جنود الدفاع جَلبة بغرض تخويف العدو وأطلقوا صيحات الحرب وتعابير التهليل والتكبير تمجيداً لله الواحد الأحد، وتلمّظوا كأنما هم مُقْدِمون على وليمة. لم يكن ريتشارد واثقاً بأنّ القلعة لا تزال تحت سيطرة المسيحيين إذ كانت الرايات الإِسلامية تخفق على السور. وما دام الوضع على هذه الحال من السوء، فلا سبب طارئاً يدعو لشن هجوم مباشر. ونشب خلاف حاد بين أعضاء مجلسه حول الخطوة القادمة.

وفجأةً، في خضم هذا التردّد، سقط شخصٌ بعيدٌ من أعالي البرج الشاهقة إلىٰ الساحل كما لو أنه يودع روحه؛ ثم غاص في الماء وسبح بحماس حتى وصل الباخرة الملكية. وتبيّن عندما سُحِب من الماء إلىٰ متن السفينة بأن الرسول هو في الحقيقة قسّ.

شرع القسّ يتكلم بدون تفكير: «أيها الملك العظيم، إن ما تبقى من شعبك ينتظر قدومك».

«أيها الصديق الطيب، ماذا تقول؟ ألا يزال البعض على قيد الحياة؟».

وفقاً لما يقال في المزمور: «لأجلك نُقتل طوال النهار. مثلنا كمثل الخرفان المساقة للذبح... إلاَّ إذا ساقتك نعمة الله لنجدتنا».

«ألا يزال البعض على قيد الحياة؟».

«أجل، ولكنّهم مطوّقون وفي الطرف الأخير في مقابل البرج البعيد».

فصرخ الملك قائلاً: «أتوسل إليك يا إلهي، بهداك وصلنا وسنموت وإخوتنا الشجعان والسلاح في أيدينا ولتنزل اللعنة على كل من يتردّد». وما أن انتهى من كلامه، حتى تحرّكت المراكب باتجاه الساحل المزدحم بالحشود.

الملك كان أوّل من وثب إلىٰ الماء. كان قد نزع الدرع عن ساقه ووسطه ووصل علو الماء في البداية إلىٰ صدره وتقدّم في الماء بصعوبة حاملاً قوسه ونشابه في يد وسيفه في اليد الأخرى. اندفع رجاله بحماس وراءه يشعرون شعور من مسَّ الله قلبه. لقد كان منظر هذا الرجل العملاق، هذا الرياضيّ المميّز مرعباً وهو يتقدم عكس التيار البشري إلىٰ حد جعل المسلمين يتراجعون تلقائياً خوفاً ورهبة. وبدأ الحصاد. لم يمرّ وقت طويل حتى تمكّنوا من إقامة رأس جسر ساحلي. نُقلت ألواح خشبية وبراميل إلىٰ الشاطىء لتشكيل متراس. وانتظم الرّماة خلفه في صفٍ صلب ومستقيم.

وجد ريتشارد طريقاً مؤديةً إلىٰ سلّم لولبي قاده من الشاطىء إلىٰ مقر فرسان الهيكل، وسرعان ما أصبح في شوارع يافا بصحبة عصابة من الرهبان العسكريين المتعطشين لسفك الدماء. وعندما سنحت لهم الفرصة رفعوا راية الملك على السور بحيث بات من الممكن رؤيتها من البرج المطوّق البعيد.

لم يصدّق صلاح الدِّين ما وصلت إليه فرقه من عجز وجبن ما أن سمع أخباراً عن سرعة تقدم الصليبيين، وإقامتهم للجسر الساحلي، والخوف الذي اجتاح جنوده الذين أصابهم الخَوَرُ في مواجهة العدو، ووجود الملك ريك في شوارع يافا وبأنّه يشق طريقه نحو البرج لتحريره في حين أنّ المدافعين عن البرج قد خرجوا للالتحاق بملكهم.

فقال لاهثاً: «كيف حصل ذلك؟ بأي ترتيب متفوّق استطاعوا تحقيق هذه الإنجازات؟ إن مجانيق جيشنا وخيّالته تفوقهم قوّةً إلىٰ حد بعيد». لقد بدأ

ريتشارد يومه بثلاثة أحصنة. أما الآن فقد أصبحت قوة الصليبيين تعدّ اثني عشر حصاناً، والقوى الإسلامية بأسرها تفرّ أمامها إما على الأقدام أَو على صهوات الجياد.

شعر الأمراء بالخجل.

وتعجَّلَ أحد المستشارين في كلامه وهو يقول: «مولاي، ليس الأمر كما تعتقد. أنا لا زلت واثقاً بأنّ أخذ هذا الملك الرائع على حين غرّة أمر سهل إذ إنه يجلس لوحده تقريباً في خيمته وهو مرهق تماماً». وهكذا انعقدت آمالهم على هذا الحل: القضاء على الملك شخصياً. ابتعد صلاح الدِّين عنهم وأمارات الاشمئزاز تعلو وجهه.

III

حصانـان عربيـان

بعد مرور ثلاثة أيام على إعادة احتلال يافا، عسكر ريتشارد خارج المدينة على الهضبة التي حاول منها صلاح الدِّين الدفاع عن المدينة وركّز جهوده على إعادة بناء أسوار المدينة المهدّمة. ولكنه كان بالفعل منهكاً خائر القوى بعد ما بذله في المعركة فتدثّر وتمدّد على أريكته أملاً في الحصول على قسط من الراحة.

خلال فترة الفراغ هذه، تبادل ريتشارد وصلاح الدِّين عدداً من المراسلات. ومن كثرة ما تنقّل مبعوثوهم بين المقرّين، وتزايدت الاتصالات بات الوضع كأن القائدين العظيمين يتناقشان وجهاً لوجه. في الاتصال الأوّل، وخلال المجاملات البدائية مع سفير صلاح الدِّين، وبّخ ريتشارد منافسه العظيم توبيخاً ساخراً. قال: «إن سلطانكم عظيم. ولا يوجد أعظم منه في أرض

الإسلام هذه. أيها الإله العظيم الرحيم! كان يجب أن أتيقن أنه لا يستطيع أن يحتل يافا في شهرين ومع ذلك سيطر عليها في يومين! فلماذا إذن فرّ ما أن وقع بصره عليّ؟ والله! ما لبستُ لأمة حربي، ولا تأهبتُ لأمر، وليس في رجلي إلاّ زربول البحر، فلماذا هرب؟»[1].

لم يرد أي جواب بالطبع على هذا السؤال المهين. يبدو أنّ الملك كان مستمتعاً ولذلك تابع كلامه بغبطة:

«تسلّم على السلطان وتقول له: بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمرٌ لا بد له من آخِر»[2].

اتخذت المفاوضات أكثر فأكثر منحى المزاح وليس منحى تبادل الأفكار حول الحلّ.

كتب إليه صلاح الدِّين: «لقد بدأت بالمطالبة باتفاقية سلام بشروط معينة. وفي تلك الفترة، شكّلت مسألة يافا وعسقلان نقطة الخلاف الرئيسية. إن يافا الآن مهدّمة. يمكنك الحصول على الأراضي الممتدة من صور إلىٰ قيسارية»[3].

فأجابه ريتشارد: «لقد سرت العادة عند الفرنجة أنه إذا أعطى واحدٌ لواحدٍ بلداً صار تبعه وغلامه. ولذلك إن أعطيتني مدينتي عسقلان ويافا فإن الكتائب التي أتركها فيهما ستكون دائماً في خدمتك. وإن احتجت يوماً لي، سأسارع إليك وأكون في خدمتك وأنت تعلم تماماً أنني أستطيع أن أقدم لك خدمات هامة»[4].

ردّ صلاح الدِّين على الطرافة التي اكتنفت هذه الرسالة بفكاهة مماثلة:

---

(1) ابن شدّاد، ص 228.
(2) ابن شدّاد، ص 228.
(3) ابن شدّاد، ص 228.
(4) ابن شدّاد، ص 228.

«بما أنّك تضع فيّ هذا القدر من الثقة، فإني أقترح تقسيم المدينتين. فتحصل على يافا وما وراءها وأحصل على عسقلان وما وراءها».

شكر ريتشارد صلاح الدِّين على حقه بالحصول على يافا ولكنه ظلّ يصرّ على الضمانات ذاتها بالنسبة لعسقلان. ووعد ريتشارد بالرحيل إلىٰ أوروبا في حال التوصّل إلىٰ اتفاقية سلام خلال الأيام الستة التالية.

حان الوقت كي يسخر صلاح الدِّين من ريتشارد. ولكنّ هذه السخرية اتخذت نبرة والد يتحدّى ولده. جاء في ردّ السلطان ما يلي: «أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه. وأما تشْتيتُه في هذه البلاد فلا بد منها، لأنه قد استولى على هذه البلاد، ويعلم أنه متى غاب عنها أُخذت بالضرورة، وإذا أقام أيضاً، إن شاء الله»[1].

«وإذا سهُل عليه أن يشتّي ها هنا، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان الشباب... أفلا يسهل علي أن أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي. ويأتي إليّ ما أريده ومن أريده[2].

..وأنا رجلٌ شيخٌ قد كرهتُ لذات الدنيا، وتعبتُ منها، ورفضتُها عني. «والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف، وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات. ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء»[3].

وفيما كانت المحادثات جارية، كان صلاح الدِّين يتحرّك. في جنوب شرق يافا، أصدر أوامره بتدمير قاعدة أمامية صليبية أخرى باسم بيت جان قبل أن يتحرك جيشه نحو الرملة للتفكير بتحركه القادم. أبلغه كشافته بأنّ قوة إنقاذ

(1) ابن شدّاد، ص 228.
(2) ابن شدّاد، ص 228.
(3) ابن شدّاد، ص 228.

جديدة في طريقها من عكّا «لنجدة» قوة ريتشارد القليلة العدد في يافا. صمّم صلاح الدِّين على منع وصول القوة المعزّزة هذه بأي ثمن.

قال: «من الأفضل أن نهجم الآن على انتظار انضمام قوات جيش العدو والتوغل بعدها في الجبال كالمهزومين. نستطيع الآن أن نكون المتعقبين».

كلما تقدم الوقت، زادت معقولية خطة الأمراء بشنّ هجوم مفاجيء على ريتشارد أملاً في القبض عليه. لذلك ترك السلطان متاعه الثقيل الوزن في الرملة وسار في جنح الظلام. وصل عند الصباح إلىٰ حوالي عشرين خيمة بما فيها الفسطاط الملكي ووجد أصحابها مستغرقين في سبات هادىء في سهل خارج يافا.

تقدّمت القوات المسلمة بسكون وباتت عند الفجر على مقربة من فسطاط ريتشارد. وعندئذٍ شب نزاع بين قائدين مسلمين حول من سيحاول القبض على الملك كأنما هم في تمثيليةٍ لألفونس وغاستون، تتعلّق بالنزاع في لعبةٍ ما. قال الأوّل بشيء من الكبر: «امشِ على قدميك لمفاجأة الملك ومرافقيه فيما نبقى نحن على صهوة أحصنتنا للحؤول دون هربهم ولجوئهم إلىٰ القلعة».

فأجابه الثاني: «كلا، إنّه لمن واجبك أنت أن تذهب سيراً على الأقدام إذ إن رتبتي تفوق رتبتك. إننا راضون بالخدمة الواجبة علينا وتنفيذ هذه المهمة سيراً على الأقدام منوطٌ بك لا بنا».

لم يكن أي منهما متلهفاً للذهاب إلىٰ الخيمة وقطع السبات الهادىء الذي ينعم به أعظم المحاربين، وسفّاك دماء العرب والمسلمين على وجه المعمورة. ارتفعت أصوات المختلفين بما فيه الكفاية كي تصل إلىٰ معسكر الصليبيين حيث قرعت أجراس الإنذار.

خرج ريتشارد مهرولاً من خيمته مرتدياً درعه مصدراً أوامره بصوت يشبه النباح. اصطف جنود في خط دفاعي متراص بانضباط مذهل فيما خرجت سبع

سرايا مؤلفة من عدة آلاف من الخيالة من مخابئها وانقضت على الجنود. ركع مشاة ريتشارد، في الخط الأمامي، كتفاً إلىٰ كتف وفخذاً إلىٰ فخذ، وراء تروسهم موجهين رماحهم نحو الخارج وَرَبَض وراءهم الرماة أزواجاً فكان الأوّل يحشو القوس والثاني يطلقه بأقصى سرعة ممكنة. خلف هذين الصفين وقف ثمانون فارساً على أهبة الاستعداد للهجوم. اقتصرت دوابهم على اثني عشر حصاناً حربياً وبغل واحد. أخذ ريتشارد، في بادىء الأمر، يعدو على طول الخط الخلفي مستحثاً جنوده على بذل أقصى جهد. وقد تكون النداءات التي نُسِبت إليه فيما بعد أكثر فصاحة مما كانت عليه في تلك الآونة:

«تحملوا مصائب القدر! . . . خصائل البشر تبرز في المحن! يحقّق الرجل الشجاع المجد أَو يموت بطلاً! . . . قبل أن تقبض أرواحنا، فلننتقم لأنفسنا! أيها الرجال، إنها نهاية الأعمال الشاقة، وخاتمة الحياة والمعارك! فلنكسب الشهادة برحابة صدر!» أَو تعابير مماثلة.

على الرغم من أنّ عدد المسلمين فاق عدد المسيحيين بنسبة أربعة لواحد، أسقط وابل السهام ضحايا كثيرين في صفوف المهاجمين وأحصنتهم. ولاحظ صلاح الدِّين من مركز مراقبته على هضبة صغيرة بعيدة أنّ جنوده عجزوا عن الإطباق على كتيبة الصليبيين المتراصّة. وما أن انتهى دفع الموجة الأولى حتى برز فجأة من خلال الجنود وهجم على العدو يعقبه عشرة فرسان آخرين: «لقد كان الملك عملاقاً ضخماً في وسط المعركة تجده في كل مكان ـ تارة هنا وطوراً هناك أينما حمي وطيس هجوم الأتراك». بهذا القول وصف المؤرخ الملك ريتشارد إلىٰ أن وقع حدث لا تصدقه العين. لقد سقط الملك عن صهوة حصانه!

صاح أحد ضباط صلاح الدِّين لافتاً اهتمام سيده والحماس يغلي في عروقه: «مولاي، انظر إليه هناك! إنه واقف على قدميه».

وبهدوء، أجابه صلاح الدِّين: «كيف يكون هذا الأمر؟ أن يقف ملك مترجلاً مع رجاله! غير ممكن!» ثم التفت إلىٰ شقيقه الملك العادل وقال: «اذهب. خذ هذين الحصانين العربيين وقدهما إليه. بلّغه بأني أرسلهما إليه وأنه لا يليق برجل في مستواه العظيم أن يقف مترجلاً مع رجاله في ظروف كهذه».

فاق هذا التصرّف كل الأفعال الأخرى شهامةً في الحملة الصليبية الثالثة بأسرها. لقد قدّمت هذه الهدية له «لمكافأته على كل الأعمال البطولية التي أنجزها وكل الانتصارات التي حقّقها». هذه هي التعابير التي تلفّظ بها العادل عندما دنا من ريتشارد في وسط المعمعة. ولم يكن له سوى رجاء واحد وهو أن يتذكر الملك الهدية فيما بعد إن حالفه الحظ ونجا بحياته من هذه المعركة.

استمرت المعركة وانتشرت حتى شملت البلدة بأسرها. ولم يمرّ وقت طويل حتى أصبح درع ريتشارد المضرج وترسه مثل جلد القنفذ من كثرة السهام التي انغرزت فيهما. طوّقه عدد كبير من الأعداء، في فترة من الفترات، تطويقاً كاملاً ومع ذلك خرج سليماً معافى من بين كومة من الجثث وكأنه ممسوس وفقاً لما كتب في سفر تثنية الاشتراع: «أريد أن أجعل سهامي مغموسةً بالدم، وأن أجعل سيفي غائصاً في أجساد المقاتلين والأسرى. إنه الثأر من العدو».

وفي لحظةٍ أخرى، هجم عليه أمير يمتطي جواداً فاخراً مدفوعاً بشعور الغيظ حيال براعة ريتشارد وذكائه ومهارته الحربية ولم يقتصر جزاؤه على قطع رأسه فحسب بل على اجتثاث نصف كتفه وذراعه الأيمن أيضاً. تراجع المحاربون المسلمون عند رؤيتهم هذا المشهد المخيف. ومع مرور ساعات النهار، تجنّب الجنود المسلمون ريتشارد فقد أصبح الملك الرجل ـ الآلة القاتلة للبشر. إنّه قلب الأسد «والأسد أقوى الحيوانات لا يهاب أحداً». انخفضت حدّة المعركة عند انسدال الليل. ويقال إن الجانب المسلم فقد أكثر من سبعمائة رجل وألف وخمسمائة حصان فيما اقتصر عدد الضحايا في الجانب الصليبي على قتيلين وعدد من الجرحى.

سجّل بهاء الدين وهو كاتب صلاح الدِّين ما يلي:

«ولقد بلغني أنّ الإنكتار أخذ رمحه ذلك اليوم، وحمل من طرف الميمنة إلىٰ طرف الميسرة فلم يَعْرِضْ له أحد»[1].

هكذا انتهت المعركة الأخيرة في الحملة الصليبية الثالثة.

معركة لا يمكن نسيانها سواء بسبب نبل الأخلاق والاحترام اللذين أبداهما صلاح الدِّين لعدوه العظيم أَو بسبب البسالة والشجاعة اللتين أظهرهما ريتشارد نفسه خلال المعركة.

(1) ابن شدّاد، ص 229 - 230.